فلسفة الأخلاق في الفكر الباقري من معرفة الذات إلى معرفة العالم

أ.م.د.هيام عبد زيد عطية

كلية الآداب / جامعة القادسية

الخلاصة:

تقوم فرضية العنوان على فكرة مفادها ، أن الأخلاق ليست سلوكا مفترضا ، إنما طبيعة منبثقة بذات تبحث عن كمالها بتماهيها مع ذات كلية مطلقة ، لا ينحقق التماهي معها من دون الحب ، ولقد قرن الإمام الباقر عليه السلام ، بين الحب في أسمى تجلياته وبين المعرفة ، كما استعاض بالحب عن المنظومة الأخلاقية ، التي شرّق فيها علماء الأخلاق وغرّبوا ، على أن هذا التعويض لا ينكر من المفاهيم الأخلاقية شيئا ، إنما يجعلها ثبوتية مطلقة ، كائنة في عمق الانتماء لله عز وجل . ولأن الذات الإنسانية ذات كلية لا تتجزأ ، فإنها تحقق أخلاقها بكمال تحققها الجسدي أولا ، ثم بكمال استجابة الجسدي للعقلي الدائم ، فلا فصل ولا فرق بين الجسد والعقل ، لأن العقل صنبور الأمان ، الذي لا يقمع الجسد ، بيد أنه يهذبه ويستله من بهيميته المجنونة .

مُدخل معرفي:

روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في القرآن أنه ((كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[1] .

تلك الجمل تجبر قارئ القرآن على تكرارها في كل موضع من مواضعه ، حين تدمغ الدوال القرآنية ماسواها من كلام البشر، وتفيض قيمة المعنى عن احتمال مؤونة الحديث اللحظي إلى مطلقية المدلول . وليس في يدي أن أدلّ على صدق تلك العبارات ، بتتبع آي القرآن بالتفسير والتأويل ، فالاستقراء هاهنا ناقص لامحالة ، مع انفتاح اللغة القرآنية واتساع مدلولاتها وكسرها

لأفق التوقعات ، السابق في عهد النزول ، أو اللاحق في عصرنا اليوم . والنافع هنا والمقارب للعقل أن ننظر لبعض الآي مدققين ممحصين ، نتخذه دليلا على غيره ، فالاستنتاج جائز ينفعنا به الجزء ، لأنه صورة خلاقة من صور الكل ، ذلك بأن الآية بعض السورة ، والسورة بعض القرآن ، والقرآن مطلق العلم والإحصاء .

وإذا عممنا المعنى على الإنسان ، الذي كان أكثر شيء في القرآن جدلا ، فإن النتيجة التي لا ينكرها العقل أننا سندرك أن المخلوق هو من صفات الله وأحواله ، لأن الله ((هو الجوهر الواحد ، الواجب الوجود بذاته ، الأزلي السرمدي ، وليس ثمة موجود سواه ، وما الموجودات الأخرى إلا صفات وأحوال له ، فهو الطبيعة الطابعة ، من حيث هو مصدر الصفات والأقوال ، وهو الطبيعة المطبوعة ، من حيث هو هذه الصفات والأحوال أنفسها ، وما دام علة ذاته ، فهو ليس في حاجة إلى شيء آخر لإثبات وجوده))[٢] .

وحيث أن الله لا يحتاج ، فإن الموجودات تفتقر إليه ، فتستمد وجودها منه ، ((فهو المتجلي في كل وجه))[٣] ، وكلما ازداد افتقارها إليه ازدادت حاجتها له . ولأن الإنسان الأكثر قدرة من بين المخلوقات على تعيين افتقاره وخلته ، فهو بذلك الأكثر حاجة لله من سواه من مخلوقاته ، ولأنه الأشد حاجة فهو مناط تحقق التجلي الأمثل والقرب الأسمى ، حتى ليصح القول أن إدراك الافتقار كمال إنساني .

وحيث يعلم الإنسان منقصته فإنه سيسير حثيثا نحو إكمالها ، ولأن اكتمالها بالله وفي الله ، فإنه _وبلا شك _سيكون متماهيا مع قوة مطلقة سببها نقصه ، وغايتها قوة الله سبحانه . وتلك منزلة معرفية صعبة المنال ، ونوالها منوط بقدرة الذات العارفة على الكشف والمكاشفة ، فإذا أدركنا بما نزل من القرآن أن الذات المحمدية كانت على خلق عظيم ، وإذا عدنا إلى فرضيتنا الأم بأن كلام القرآن هو الفصل ، بتنا نعلم أن الذات المحمدية هي لب الكمال المتحقق في النقص المادي ، فهو حقيقة قائمة برأسها ، أو كما يقول ابن عربي ((الحقيقة المحمدية الأولية ، الكلية ، العلية ، النورانية ،... التي هي لأول موجود وجد على الذات النورانية))[٤].

من هنا يكون قوله تعالى ((وإنك لعلى خلق عظيم))[٥] ، إثباتا للافتقار المحمدي في وجوده الدنيوي للذات النورانية ، التي من المفترض أن يكون عليها حين لم يكن ذاتا جسمانية ، فعظمة هذا الخلق هي عظمة الإدراك لافتقار الذات لصورتها المثلى ، وبحثها الحثيث عن طريقة ما تكون فيها الذات الأرضية المادية الزائلة صورة من صور الذات النورانية المطلقة ، وكلما كان البحث وكد الموجود وفلسفته ، فإن التماهي مع المطلق المثال متحقق بشكل من أشكال المنال المحدود ، وكلما

تحقق شيء من المنال تم جزء من الخلق ، حتى يكون تمام الخلق هو تمام التماهي ، وتكون عظمة الأخلاق هي عظمة الانتماء .

أولا : أهل البيت وحقيقة الانتماء :

هذه الجدلية الدائبة في البحث تتحقق كما وكيفا ، عند كثير ممن أدركوا أن الأخلاق ليست سوى كمال الحب لله عز وجل قال تعالى ((والذين آمنوا أشد حبا لله))[٦] ، وحتى ينال العبد حب ربه فإنه سيبحث عنه ، وما بحثه عنه سوى فعل أخلاقي متواصل دائب ، لأن الله لا يحب المفسدين ، ولا يحب الفرحين ، ولا يحب كل مختال فخور ، ولا يحب الظالمين ولا المفسدين ولا الكافرين ولا المعتدين ، والتنازل عن تلك القيم التي لا تحقق الحب ، إنما هو تنازل عن غير الأخلاقي ، من أجل تتويج الذات بكمالات الوجود ، وما كمال الوجود سوى كمال الانتماء ، وما ذاك إلا كمال التحقق للذات النورانية .

ولأن أهل البيت ((من شجرة واحدة وسائر الناس من شجر شتى))[٧] ، و لأنهم ((من أهل بيت زقوا العلم زقا))[٨]، ولأن ((أمرهم صعب مستصعب خشن مخشوشن سر مستسر لا يدركه إلا ملك مقرب أو نبي مرسل))[٩] ، فإن ذاك إنما بلحاظ انشطار الذات المحمدية النورانية المحبة العاشقة ، في كل واحد منهم بنسبة ثابتة ، منها ما فيه للعلم ومنه ما للوراثة ومنه ما للمكابدة والمجاهدة في تحقق الخلق الإنساني الأسمى .

ولقد أورد التأريخ من قصصهم وأخبارهم ، وعلومهم وفقههم وحديثهم ، وحكومتهم في القضاء وحججهم في جواب المسألات ، وعبادتهم وتهجدهم في الليل وبكائهم في المحاريب ، وتقشفهم وورعهم وزهدهم وكرمهم ، وما حلّ بهم من نوازل الدهر ، وجور الحكام وصبرهم على الملمات وتجرعهم لغصص النازلات ، ما يجزم بمنزلتهم الدنيوية الرفيعة ، وجهادهم في نسخ الصورة النبوية وتحقيق التمامية القرآنية .

وفوق ذاك والأهم منه ، أن تحققه الدنيوي الزائل لم يكن عارضا وقتيا ، ولم يسمحوا للزمن أن ينال منهم ، إذ أدركوا أن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، هي المصداق الأسمى للصيرورة الإنسانية الفاعلة والمنتجة ، وأن اللغة القرآنية فاعلية عقلية ، وهي ((تستدعي الخروج من المحدودية الجسدية العابرة ، والانفلات من القوانين المهيمنة ، التي يدركها العقل البشري الحسي الواهم ، من أجل الوصول للمطلق المتعالي ، الذي لا تدركه العقول والأوهام بيد أن القلوب هي مناط تحصيله))[١٠] .

هذا التحقق هو الذي دعا أهل البيت إلى القول الفصل في كل موضع يستوجب قولا ، ما آثر عنهم جملة من النصوص بالغة القوة ، في مواضع زمنية ومناسبات فعلية كثيرة ، تتميز بخصوصية

قائلها ، مهما اتفق في فكره العقدي مع ذويه السابقين واللاحقين ، ((ما يعني أن اللغة هنا ليست وسيلة للتواصل ، ولا أداة للتعبير ، إنما هي صورة الذات المدركة ، بل هي الصورة الأسمى ، التي لا تعتم عليها الشهوات ، والتي تنطق بفناء الجسدي وتهميشه . فاللغة صفة المطلقية المعرفية ، والديمومة المقصدية ، والفاعلية التأويلية . وهو أمر قامت عليه المعرفة القرآنية ، ونمت في ظلها العلوم كافة . ومما لا شك فيه أن المعرفة العلوية ليست ببعيدة عن تلك المعرفة ، فلقت نشأت في حجرها ودبت ودرجت واستطالت ، وجودا إنسانيا مطلقا أصله ثابت وفرعه في السماء))[١١] .

ثانيا : الذات الباقرية :

من هنا كان للإمام الباقر شأنه في هذه المعرفة المختلفة والمتقدة ، حتى قيل فيه أنه ((باقر العلم وإمام الهدى وقائد أهل التقى))[١٢]، وأنه لقب باقرا ((لأنّه بقر العلم ، وعرف أهله واستنبسط فرعه وتوسع فيه ، والتبقر التوسع))[١٣]، وإنه عليه السلام ((لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنّة وعلم القرآن وسيره وفنون الآداب ما ظهر عنه))[١٤] .

ولقد جاء عن الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي ، وهو من كبار فقهاء عصره ، في تفسير قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ))[١٥] ، قال((كان والله محمّد بن علي منهم))[١٦]، وحُكي عن أبي نعيم في كتابه الحلية أنّه: ((سأل رجل ابن عمر عن مسألة فلم يدر ما يجيبه ، فقال اذهب إلى ذلك الغلام فسله وأعلمني بما يجيبك ، وأشار إلى الباقر عليه السلام فسأله فأجابه فأنجد ابن عمر فقال : إنّهم أهل بيت مفهمون))[١٧] ، كما روي عن بعضهم أنّه قال : ((ما رأيت العلماء عند أحد قطّ ، أصغر منهم عند أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام))[١٨] ، وروي أنه قال عن نفسه : ((لو وجدت حملة لعلمي الذي آتاني الله عز وجل ، لنشرت التوحيد والاسلام والدين والشرائع ، وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمة ، حتى كان يتنفس الصعداء ، ويقول على المنبر : سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح علما جما))[١٩].

هذه المعرفة الباطنية الكبيرة متمركزة على المعرفة الربانية ، فغاية الامر لدية الاندماج بالذات العليا، وهذا أمر تتبين ملامحه مما أثر عن الإمام من أقوال وأفعال ، كلها تربط الإيمان بالمعرفة ، وتنتج عنها مبادئ أخلاقية ، لا تنفصل عراها عن الذات التي تتبناها ، لا بوصفها أمرا منوطا بقرار مسبق ، إنما هي فيوضات الحدوس الباطنية التي ترافق الإدراك ، والتي محل تحققها هو القلب السليم .

ثالثا : فلسفة الأخلاق :

بهذا الشكل تتبين قوة الاختلاف ، بين ما ورد عن المدرسة المحمدية من منظومة أخلاقية ، وما ورد عن علماء الأخلاق ، الذين عملوا دائبين على رسم حدود هذا العلم بفلسفاتهم وشروحاتهم الكثيرة . وهي على ما بها من وجهات نظر خلاقة ودقيقة ، وعلى ما بها من استدلالات عقلية وقيم مستنبطة ، تختل في بعض جوانب طروحاتها العديدة .

فلقد ورد عند غير واحد من الفلاسفة ، وهم يتداولون الحقيقة أنهم يقرنونها بالله سبحانه : ((ذلك أن الذهن الإلهي هو منطق الحقائق الأبدية))[٢٠] ، مع فارق في تفاصيل العرض الفلسفي ، وهذا ما نجده عند إفلاطون ، من أن النفس الإنسانية تميل إلى موضوع الأخلاق ، لا بالصيغة الدنيوية المكتسبة من التعلم ، إنما بتذكرها عالم المثل ، الذي فارقته حين دخلت الجسد ، وإن النفس لطالما تتصارع مع ذاتها الشهوانية ، من أجل الوصول إلى العالم الأخروي ، الذي هو عالم المثل مرة أخرى[٢١] .

واتفق أفلاطون مع أستاذه سقراط ، على أن علم الأخلاق لا يكتسب من دراسة أمثلة جزئية للسلوك الأخلاقي ، أو من استقراء للفضائل كما تمارس بالفعل ، بل ينبغي إن تكون هناك غاية عليا ، تتجدد من خلالها قيمة السلوك الفاضل ، بحيث تكون نقطة البداية في أية دراسة علمية للأخلاق هي تحديد هذه الغاية القصوى ، صحيح إن عامة الناس يكتفون في سلوكهم بالرأي الشائع عما هو خير ، أي أنهم يقتصرون على رؤية الأمثلة الجزئية للفضيلة ، ولا يمدون بأنظارهم إلى المبدأ الكامن ورائها بالفعل ، بيد أن الفيلسوف لا يستطيع ان يفهم الخير من خلال ما يفعله الناس بالفعل ، بل هو يبحث في كل شيء عن علته ، وعن الأسباب التي تجعله على ما هو عليه ، وعندئذ يكون لزاماً عليه أن ينتقل من كل خير جزئي إليه ، ويبحث في كل شيء عن علته ، وعن الأسباب التي تجعله على ما هو عليه[٢٢] .

وعند أرسطو فإن صورة الله ((تفرض عدم الاهتمام بالعالم ، إن الله لا ينشغل بمسيرة العالم كما إنه لا يتأثر بها ، وبما إن الله غير متحرك ، فإن العالم لا يتحرك بفعل عمله ، بل بفعل الاندفاع الحنيني من قبل المادة باتجاهه باعتباره الصورة الخالصة))[٢٣]، ولقد نفى أن تكون الأخلاق راجعة إلى الفضائل العقلية ، التي تظهر في الحياة العملية إنما إلى القضايا البرهانية الصادقة ، فالحياة العملية لا تصل إلى مستوى المعرفة النظرية ، التي تظهر بالتأمل النظري الذي يعتمد عليه العلم[٢٤]، وفي دعوته للتأمل النظري ترجيح لكفة المعرفة اليقينية المستنبطة من طاقة الإنسان على الاستدلال التي أودعت فيه في أصل خلقه .

ولم تشذ فلسفة ديكارت عن هذا النسق التحليلي ، فلقد أوجدت نظرية الشك وعيا بالذات ، فوعي الذات بذاتها هو الذي يتيح لها الشك ، وأن الأفكار ليكون الوعي مصدرها في كثير من الأحيان ، في حين لا يمدنا العالم الخارجي بالكثير، لا سيما فيما يتعلق بالأفكار الجوهرية ، التي لا يمكن للمتناهي إثباتها ، ومنها فكرة الله سبحانه ، والتي تضم فكرة حقيقة الوجود الأكثر كمالا ، وحتى نصل لتلك الحقيقة فإن علينا أن نتحاشى النقص الحاصل بسبب الكذب والخداع أو ما أسماه ديكارت بالروح الخبيثة[٢٥]. فحتى تجد الذات نفسها فإن عليها أن لا تتنازل عن الفعل الأخلاقي ، وحتى لا يحدث التنازل فإن عليها مغادرة الرذائل التي تغير مدركاتها وانطباعاتها وتصوراتها عن نفسها ، ومن ثم يتكدر واقعها الإدراكي في معرفة الله ، وتلك المجهولية الكبرى والتغريب الأكبر الذي يصيب الذات .

وعند أسبينوزا كانت الأخلاق مقرونة بالله تعالى ، بوصفه مؤمنا إيمانا شديدا وفيلسوفا متنورا ، مع ما في فلسفته من تهم تؤكد العكس تماما ، وفي نظرية المعرفة بحسبه تعد : ((أفكار النفس الإنسانية صحيحة ومتطابقة ، إذا ما تمت نسبتها إلى الله ، فكل فكرة حق هي لله ، ذلك بأن الأفكار هي حالات الصفات الإلهية المفكرة ، والأفكار الصحيحة هي أفكار واضحة ومميزة ، وهي تنطوي على يقين حقيقتها ، إذ أن الحقيقة هي معيارها الوحيد ، ولا معيار آخر لها خارجا عنها))[٢٦].

وحتى في الفلسفة العقلانية ، التي أخذت تسيطر على الوعي في القرن السادس عشر ، ومع رد الظواهر إلى عللها وأسبابها التي يمكن الإحاطة بها ، فإن الفلسفة تعاملت مع الأخلاق على أساس من تحديد المفاهيم وتحليل الموضوعات والكشف عن ترابطاتها . ما دعا إلى إشراك الدولة والمؤسسات في فرض الوضعيات الأخلاقية المختلفة ، حتى لا تتحكم الأنانية والفردية بالمجتمع وتؤدي إلى انهياره .

والأمر ذاته نراه في الفلسفة التجريبية العملية عند جون لوك الذي يرى أننا وبالنظر إلى ((محدودية معرفتنا ونظرا لعدم إمكانية الوصول إلى اليقين في أغلب المجالات ، يكسب الاحتمال في ممارسة الحياة الفكرية اليقين دورا كبيرا ، ويأتي ذلك اكتمالا لنقص المعرفة ، يتناول الاحتمال أقاويل يمكن أن نعتبرها صادقة ، إما انطلاقا من خبرتنا الخاصة أو انطلاقا من شهادة دوافع أخرى ، تسم سلوك الذهن تجاه هذه الأقاويل بما يسمى الإيمان أو الرأي أو القبول))[٢٧]، ولا يحدث اليقين ولا القبول بالاعتماد على النفس ، إذا لم يكن للنفس علاقتها الخاصة مع مثال تكون آراؤه صحيحة .

وفي فلسفة كانط المثالية ، يرفض الرجل أن تكون مبادئ الأخلاق مستمدة من الواقع التجريبي ، لأنه يستحيل أن نعثر في الواقع على فعل أخلاقي صادق ، ومن المستحيل تماما أن نقرر بالتجربة و بيقين كامل حالة واحدة قام فيها الفعل المطابق مع ذلك الواجب ، على مبادئ أخلاقية

فقط وعلى الامتثال له . ومقابل رفضه لمبادئ الأخلاق المستمدة من التجربة ، فإنه يقبل بأن تكون مستمدة من العقل ، فكل التصورات الأخلاقية ، محلها و أصولها قبلية كما في العقل الإنساني المشترك وفي العقل الإنساني النظري إلى أقصى درجة[٢٨]. وعليه فإن ((من كل ما يمكن تصوره في العالم ، بل و خارج العلم بعامة ، ليس ثم ما يمكن أن يعد خيرا بدون حدود أو قيد، اللهم إلا الإرادة الخيرة))[٢٩] .

ولم يشذ عن هذا الربط بين الله والأخلاق من أحد سوى نيتشة ، الذي عد خروج الغرائز من السلوك الإنساني القويم اجحافا بحق الإنسان نفسه ، كما رفض في مؤلفاته جميعا (جينالوجية الأخلاق و أفول الأصنام وما وراء الخير والشر) أن يكون الله أو الشرائع مصدر الأخلاق ، ذلك بأن الأحكام التقويمية لا تعتمد على العقل مطلقا إنما تتحكم بها إرادة القوة وحب السيطرة .

أن نيتشه لم يعترف بالنظام الأخلاقي إطلاقا، لأنه (استبداد) "يناقض الطبيعة والعقل" ، ولكونه ينبع من معين أخلاق العبيد ، أما (الأنانية) فهي وحدها التي ارتقت بالإنسان من حالة الحيوانية إلى الإنسانية ، وستكون سببا بارتقائه إلى الكمال (السوبر مان) . وبذلك كان نيتشه أمينا على منهجه التطوري البيولوجي التاريخي ، الذي تحكمه قاعدة "البقاء للأقوى" ، لأنه "الأصلح" ، والتي فرضت ارتقاء الكائنات جيلا بعد جيل . كما أنها فرضت قيما جديدة ، لتحقيق "غاية الحياة" و"هدف" الإنسانية ، ونعني به ولادة "الإنسان السامي – السوبرمان" من صلب الأرستقراطية ، التي خصها فيلسوفنا بأحسن الأشياء وأفضل الامتيازات ، وطالب الأكثرية (الضعيفة) بفضيلة القناعة .

رابعا : الأخلاق الباقرية :

هذا التراكم الكمي الفلسفي هنا وعلى اختلاف مشاربه ، له تجلياته في الفكر العقدي الباقري ، فالعقل الخالص والحس المشترك والحدوس الباطنية والخبرة الانسانية والغريزة الجسدية ، كلها عناصر فاعلة في التجلي الأمثل للخُلق الرصين ، ليس كما فصّل الفلاسفة وقدّروا ، وليس كما حدّدوا و اختلفوا ، إنما بجمع تلك العناصر جميعا في بوتقة واحدة ، من أجل نتيجة هي المرجوة من الوجود البشري برمته .

والاختلاف المنماز في الفلسفة العقدية الباقرية ، أنها شأن سائر أهل بيته ، ترسم دائرة فكرية ، ليس لها بداية ولا نهاية ، لأنها تتكور وتلتف من وإلى سر الاسرار وعلة العلل . فغاية الوجود المادي المتحقق إنما هو صورة للحقيقة المطلقة ، التي لا يمكن للإنسان أن يكون لوجوده من معنى من دون إدراكها ، وحين يتم الإدراك فإن المرء سيعمد من دون تقرير سالف إلى سلوكات بشرية أخلاقية لا يجوز فيها الشر ألبته ، لأن الشر والله على طرفي نقيض .

وإذا عدنا بالاتجاه المعاكس ، فإن الإدراك العقلي الانساني المتاح ، لمن لا يدرك الحقيقة المتعالية ، سيؤدي به إلى سلوك أخلاقي رصين ، مبعثه الحدوس الباطنية ، التي أودعها الله في خلقه ، والتي يمكن لها أن تتنامى في ظل التأمل ، إن لم تعكر صفوها الشهوات وتعتم عليها الرغبات .

إذا يجب أن نقول هنا أن الاخلاق متاحة بالضرورة ، أو أنها أودعت ضمنا في التكوين العقلي الإنساني ، وإنها لا تحتاج أكثر من سلامة قلبية للوصول إليها ، فالقلب مناط تحقق المعقولات وردم هوة الرغبات ، وما هدم الرغبات في النتيجة إلا قرب من غير المتناهي ومن اللوغوس الأسمى ، لأن المعادلة الإنسانية قائمة على الإدراك والمعرفة العلمية ، التي تنوب الأخلاق فيها مناب القانون الكلي ، الذي لا تحل المسألة بدونه .

هذه المعادلة كانت حاضرة في الفلسفة العقدية الباقرية ، ولقد بان دليل يقينها من كثرة وصاياه لصحبه . فلقد أكثر من الوصية بالفعل الأخلاقي ، مردفا إياها بسبب مانع من عدم إقامته ، ناسبا قيمة فعله لعلاقة مفترضة صحيحة مع كنه الوجود ، حتى باتت تلك الوصاية تعليلية شارحة أكثر منها مانعة نافعة . وأهم تلك الوصايا وصيته لجابر بن يزيد النخعي[٣٠] ، التي تعد بندا خلقيا وتوجيها سلوكيا وحضاريا متجددا في كل آن .

لقد حوت تلك الوصية خصالا نافعة بمجملها ، غير أن تلك الخصال لا تقدم للمعرفة الإنسانية مزيدا ، إن هي انحسرت في أفق الممارسة التواصلية مع الآخر الإنساني ، لأنها حين ذاك ستدخل في باب البراغماتي اللحظي ، الذي يسقط الحسابات العقلية من المعادلة الإدراكية ، ما يعني إسقاط الوجود الإنساني كله دفعة واحدة ، لأن الإنساني الحق هو النوراني المحمدي الأول ، الذي يتحلل من الجسماني المادي النفعي العابر والوقتي ، ويبني فضاء تجلياته في الاندماج مع النور الأول الأسمى ، ولا يحل ذلك التجلي بأي منفعة من أي نوع ، إنما يتجسد وتظهر مدياته الرحبة في الانتساب الى الأصل الأول : ((واعلم أنه لا مصيبة كعدم العقل ، ولا عدم عقل كقلة اليقين ، ولا قلة يقين كفقد الخوف ، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف))[٣١].

ولربما لن يكون الكلام هنا على وجهه الصحيح ، إن لم نقل أن الفعل الأخلاقي الذي تأتي به كلماته لا يكون مكتملا على وجهه الأسمى ، من غير كمال الانتماء الذي لا يتم إلا بالحب : فلقد قال عليه السلام ((ما عرف الله من عصاه ، وأنشد :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع))[٣٢].

ولأن حب الله سبحانه لا يظهر بالأهواء ، ويظهر بالطاعة ، ولأن الطاعة هي غير المعصية ، ولأن المعصية هي تبع الشهوة ، والشهوة خلاف العقل ، فإن حب الله هو حب العقل ، وطاعته هي العقل بعينه . من هنا كان كل عاص ، إنما هو قرين جهل أو جنون ، لا يظهر جليا في حال مسلك المرء سلوك معيشته ، أو صلته بالناس في الأرض ، بيد أن آثاره تبدو جلية حين يُقرن المرء العاصي بالمحب المطيع ، أو حين نلمح التنافر بين أفعاله وبين سلوك أشخاص آخرين .

إن كل شرود ذهن وانعدام رزانة وكلام كثير وغلواء أهواء وهذيان عشق وإدمان خمر واكتئاب حزن ، وكل فساد ذوق وانعدام إرادة وخلل في ملكة حكم وشطحات مخيلة ، وكل شبق مفرط وخوف مبالغ فيه وجوع نهم وسخط طاغ ، مدعاة للنظر في كفاءة العقل الإنساني الأمثل ، ذلك بأن غياب العقل يعني غياب الحكمة والنظام ، وغيابهما يعني أن البهيمية هي الحاكمة في السلوك الإنساني ، فداخل كل نهم شبق غاضب خائف دابة ما ، وكل امرئ انزاح في سلوكه عن العقل الواعي ، إنما أوقع نفسه تحت نير عبودية هوى عنيف ، ما يعني أن المرء ضعيف ، وأن الإرادة معطلة[٣٣] .

هذه الصفات المعظلة ، هي ما اتفق علماء الأخلاق من المسلمين على تسميتها بأمهات المعاصي ، كالحسد والحرص والكبر والطمع ، والكذب والحسد والحقد والخيانة ، والغضب والظلم والتعدي والنفاق ، والرياء والخداع والنميمة والزور ، والغدر والفظاظة والتكبر واللعن، وهي خصال سوء تغير مزاج صاحبها إلى أسوء حال ، ولا تفارقه إلا بعكسها ، من تصديق وعدل ورجاء وصدق ، وتوكل ونقاء سريرة ورضا ورأفة ، ورحمة وعلم وعفة وسخاء ، ورفق وزهد ورهبة وإدمان الصلة بالله سبحانه[٣٤]

وفي تجليات العقل الواعي والإرادة الحرة القائمة على الحب المطلق وكمال الانتماء ، تبدو اللغة هي الوسيلة الأمثل لإظهار الطاعة الإنسانية المثلى لله سبحانه ، وهو أمر مناط تحققه الدعاء والخطب والأقوال المأثورة ، التي التجأ اليها أهل البيت جميعا ، للتدلال على انطباق الصورة الأرضية الزائلة على الصورة السماوية النورانية ، حتى أضحت اللغة لديهم ((كشفا عن الممكنات الإنسانية في تجلي المطلقية الكونية في المحدودية البشرية ، بتقمص هيأتها وإدراك أبعادها وإعادة تأويلها ، وإحلالها حضورا وغيابا في الممكن الزماني والمكاني ، فتتلاشى الجسدية المقيتة ، وتنطلق الروحية السامية ، التي خلقت أصلا على صورة المركز المثال ، فغيبتها الحاجة وعتمت عليها الشهوات))[٣٥].

لقد أضحت اللغة بنية وشكلا مكونا للوجود المحمدي ، لأن جوهر التحقق المثالي يتحدد داخل بنية خطاب ما ، ما يمنحه ((السيطرة على كلية الروح والجسد ، فهذا الخطاب هو ، في الوقت ذاته

، لغة صامتة يحدث من خلالها الذهن نفسه داخل حقيقته الخاصة ، وتمفصل مرئي في حركات الجسد))[٣٦] .

إذا لا شك في استجابة الجسدي في الذات للعقل الواعي ، ما يجعل المحدود الفاني مطلقا ، متماهيا مع النور الأسمى وقاصدا إليه ، والأهم في التماهي ، أن الذات تكف عن أن تكون ذاتها ، لتكون عالما مصغرا ، تتحقق فيه مطلقية من نوع ما .

من هنا تكون الذات الباقرية بوصفها ذاتا عاقلة ، ذاتا مطلقة ، تتحقق لغويا ، وتتماهى مع صورتها النورانية ، وتكف عن أن تكون مادية زائلة ، أو أن تكون محدودة فانية ، وكيف يصح لها الفناء وقد استعاضت عن نفسها بوجود عقلي لغوي رصين ، قال عليه السلام ((إن كلامي لو وقع طرف منه في قلب أحدكم لصار ميتا))[٣٧] .

لقد قرن الإمام الباقر عليه السلام ، بين الحب في أسمى تجلياته وبين المعرفة ، كما استعاض بالحب عن المنظومة الأخلاقية ، التي شرّق فيها علماء الأخلاق وغرّبوا ، على أن هذا التعويض لا ينكر من المفاهيم الأخلاقية شيئا ، إنما يجعلها ثبوتية مطلقة ، كائنة في عمق الانتماء لله عز وجل . ولأن الذات الإنسانية ذات كلية لا تتجزأ ، فإنها تحقق أخلاقها بكمال تحققها الجسدي أولا ، ثم بكمال استجابة الجسدي للعقلي الدائم ، فلا فصل ولا فرق بين الجسد والعقل ، لأن العقل صنبور الأمان ، الذي لا يقمع الجسد ، بيد أنه يهذبه ويستله من بهيميته المجنونة .

المصادر

١. القرآن الكريم
٢. آلة الكلام وصفة اللسان قراءة ذوقية معرفية في فلسفة الإمام علي ، هيام عبدزيد ، مخطوط .
٣. الأخلاق في فكر إفلاطون الفلسفي ، حسين حمزة شهيد ، مركز دراسات الكوفة ، ع/١٠، ٢٠٠٨.
٤. الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطو طاليس ، تر: أحمد لطفي السيد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .
٥. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ، الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣ هـ) ، مؤسسة ال البيت عليهم السلام لاحياء التراث ، ط١ ، ١٩٩٥.
٦. أطلس الفلسفة ، بيتر كونزمان وآخرون ، تر: جورج كتورة ، المكتبة الشرقية ، ط٢ ، لبنان ، ٢٠٠٧.
٧. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين ، دار التعارف للمطبوعات ، ط٥ ، بيروت ، ١٩٩٨ .
٨. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي ، مؤسسة الوفاء ، لبنان ، ١٤١٤
٩. تاسيس ميتافيزيقيا الأخلاق ، إمانوئيل كانت ، تر: عبد الغفار مكاوي ، مر:د.عبد الرحمن بدوي ، منشورات الجمل ، ط١، المانيا ، ٢٠٠٣.

١٠.تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ، ميشيل فوكوه ، نر : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، ط١، لبنان / المغرب ، ٢٠٠٦.

١١.تحف العقول عن آل الرسول ، أبو محمد الحسن ين علي بن شعبة الحراني (ت ق٤) ، قدم له : الشيخ حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ط٧ ، لبنان ،٢٠٠٢.

١٢.الجامع الصحيح و سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تح: أحمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٣.حقيقة العبادة عند محي الدين بن عربي ، كرم أمين أبو كرم ، دار الأمين للنشر والتوزيع ، ط١، القاهرة ، ١٩٩٧.

١٤.دراسات في الفلسفة الحديثة ، محمود حمدي زقزوق ، دار الفكر العربي ط٣ ، القاهرة ،١٩٩٣،

١٥.علم الأخلاق ، باروخ أسبينوزا ، تر: جلال الدين سعيد، مر: د. جورج كتورة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١، لبنان ، ٢٠٠٩.

١٦.الفتوحات المكية ، محي الدين بن عربي ، تح : عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٧.فلسفة الأخلاق الإسلامية ، العلامة إبراهيم الموسوي الزنجاني ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ط٢، لبنان ، ١٩٨٣ .

١٨.كشف الغمة في معرفة الأئمة ، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢هـ) ، تح: علي آل كوثر ، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت ، دار التعارف ، دط ، بيروت ، ٢٠١١.

١٩.لسان العرب ، ابن منظور العلامة جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ) ، تح : عامر أحمد حيدر وعبد السلام جليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، ط٢، بيروت ٢٠٠٩.

٢٠.المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥هـ) ، تح: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٠ ، لبنان .

٢١.مقال في المنهج ، رينيه ديكارت : تر :محمود محمد الخضري ، دار الكاتب العربي ، ط١ ، لبنان ، ١٩٦٨.

٢٢.مقتل الحسين ، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي (ت٥٦٨ هـ) ، تح: العلامة الشيخ محمد السماوي ، دار أنوار الهدى ، ط١ ، إيران ، ١٤١٨ .

٢٣.المناقب ، رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت٥٨٨هـ) ، المطبعة العلمية ، قم .

٢٤.نهج البلاغة المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي (ت ٤٠٦ هـ) ، تح : السيد هاشم الميلاني ، مركز إحياء التراث ، ط٢ ، كربلاء ، ٢٠١٦.

الهوامش:

١) سنن الترمذي ، فضائل القرآن ، الحديث ٢٩٠٦: ٨٩/٩.
٢) علم الأخلاق ، باروخ أسبينوزا ، تر: جلال الدين سعيد: ٦٣.
٣) الفتوحات المكية ، محي الدين بن عربي ، تح : عثمان يحيى : ٤٤٩/٣.
٤) حقيقة العبادة عند محي الدين بن عربي ، كرم أمين أبو كرم : ٥٨.
٥) القلم : ٣.
٦) البقرة :١٦٥.
٧) المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري : ٢٤١/٢.
٨) مقتل الحسين ، الخوارزمي ، ٢/ ٧٦.
٩) نهج البلاغة ، الشريف الرضي : ٩/٢٠٢.
١٠) آلة الكلام وصفة اللسان قراءة ذوقية معرفية في فلسفة الإمام علي ، هيام عبدزيد ، مخطوط : ٨
١١) نفسه : ٩
١٢) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي: ٩١ / ٧٦ .
١٣) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (بقر) ، أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين:٢٩٣/٢.
١٤) الإرشاد ، الشيخ المفيد : ٢٩٣-٢٩٤.
١٥)الحجر : ٧٥.
١٦)كشف الغمة :
١٧) مناقب الشيعة : ١٤٧/٤ .
١٨) الإرشاد ، الشيخ المفيد : ٢٨٢.
١٩) بحار الأنوار : ٣/ ٢٢٥.
٢٠) دراسات في الفلسفة الحديثة ، محمود حمدي زقزوق :١٣٠. دار الفكر العربي ،القاهرة ، مصر ، ط٣ ،١٩٩٣،
٢١) ينظر : أطلس الفلسفة ، بيتر كونزمان وآخرون ، تر: جورج كتورة :٤٣_٤٤.
٢٢) ينظر: الأخلاق في فكر إفلاطون الفلسفي ، حسين حمزة شهيد : ٢٦٤، مركز دراسات الكوفة ، ع/١٠، ٢٠٠٨.
٢٣) نفسه :٤٩.
٢٤) ينظر : الأخلاق النيقوماخية ، أرسطو : ٣٣٣.
٢٥) يراجع :مقال في المنهج ، رينيه ديكارت : تر :محمود محمد الخضري .
٢٦) علم الأخلاق ، باروخ أسبينوزا : ١٢٩.
٢٧) أطلس الفلسفة : ١١٩.
٢٨) ينظر : الأعمال الكاملة (تاسيس ميتافيزيقيا الأخلاق) ، عمانوئيل كانط ، تر: : ٤١٢/٤.
٢٩) نفسه والصفحة .

٣٠) يراجع : تحف العقول عن آل الرسول ، الحسن ين علي الحراني : ٢٠٣_٢٠٦.

٣١) نفسه : ٢٠٥.

٣٢) نفسه : ٢١١.

٣٣) يراجع : تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ، ميشيل فوكوه ، تر: سعيد بنكراد : ١٦٨_٢٥٦.

٣٤) ينظر : فلسفة الأخلاق الإسلامية ، إبراهيم الموسوي الزنجاني : ٢٠_٢١.

٣٥) مركزة الهامش في الصحيفة السجادية ، هيام عبدزيد ، مخطوط .

٣٦) تاريخ الجنون : ٢٥٧ .

٣٧) تحف العقول : ٢٠٨ .

Conchlusion

Imam Baqir peace be upon him, between love in the highest manifestations and knowledge, and replaced with love for the moral system, which Eastern scholars and Westerners, that this compensation does not deny the concepts of morality, nothing, but makes it absolute evidence, located deep in belonging to God Almighty . Because the human self is indivisible, it achieves its ethics with the perfection of its physical attainment first, and then with the perfection of the physical response to the eternal mind. There is no separation between the body and the mind, for the mind is the safety spout, which does not repress the body.